**الشاهد القرآني في الخطاب التربوي والدعوي**

 **الدكتور محمد جرادي**

 **جامعة ادرار - الجزائر**

**مدخل:**

اتسع حقل التربية الإسلامية ودعوتها وكثر فيه المتدخلون، فأشبع الخطاب التربوي والدعوي وتعددت منابره، وبقدر ما تعكسه الظاهرة من تفاؤل بمستقبل الإسلام في داره وخارجها، بقدر ما تثيره من مخاوف على مستقبل هذا الخطاب، الذي بدأت تتجلى فيه ملامح إعادة إنتاج خطاب القُّصَّاص، الذين لم يكن همهم سواء إلهاء الجماهير بطريف الحكايات وغريب النوادر، قال صاحب المدخل: (منع علماؤنا رحمة الله عليهم الجلوس إلى القصاص)[[1]](#footnote-1)، وما ذلك إلا لاعتمادهم ضعيف المصادر ومهجورها، وجهلهم بالقرآن الكريم، ولإجل ذلك كان من صحت معرفته بالقرآن والسنة يُرخص له، فقد منع الإمام علي[[2]](#footnote-2) رضي الله عنه كل من كان يتكلم في جامع البصرة وأذن للحسن البصري.

الخطاب صورة ممن صور الاتصال، بل هو أوسع صور الاتصال تداولاً واستعمالاً، وهو نعمة امتن الله تعالى على الإنسان بأن وهبه أدواتها، فقال تعالى: الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان[[3]](#footnote-3)، قال المفسرون: (أي ألهمه النطق الذي يستطيع به أن يبين عن مقاصده ورغباته، ويتميز به عن سائر الحيوانات)[[4]](#footnote-4).وقال أيضاً: ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين[[5]](#footnote-5)، قال ابن كثير: (أي لساناً ينطق به فيعبر عما في ضميره)[[6]](#footnote-6).

ومن نعمه تعالى على نبيه داوود عليه السلام ما جاء في قوله تعالى: وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب[[7]](#footnote-7)، أي الكلام البين المفهم المقنع، (قال مجاهد: هو الفصل في الكلام وفي الحكم)[[8]](#footnote-8). ومهما تقدمت وسائل الاتصال وتنوعت طرائقه سيظل الخطاب المباشر أهم وسائل البلاغ والبيان وأقدرها على إحداث التواصل بين أفراد النوع البشري، هذا ما عبر عنه المصلح الجزائري الإمام عبد الحميد بن باديس بقوله: (اللسان أداة البيان وترجمان القلب والوجدان، والكلام به يتعارف الناس ويتقاربون، وبه يتحاجون ويتفاوضون، فهو رابطة أفراد النوع الإنساني وعشائره وأممه، وبريد عقله وواسطة تفاهمه، فإذا حسن قويت روابط الألفة، وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم)[[9]](#footnote-9).

**أولاً- مفهوم الخطاب التربوي والدعوي:**

التربية والدعوة هي بعض مضامين الخطاب الديني الذي يأتي بثلاث استعمالات:

**أ**- **خطاب الوحي**: فيكون بهذا الاستعمال مفهوم الخطاب مقتصراً على النصوص الدينية (آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة المطهرة).

**ب** - **ما يقابل الخطاب المدني**: فالخطاب الديني هو المتصل بالشأن الديني البحت أو بالأحرى التعبدي (عقيدة وعبادة) أمراً أو نهياً، أما الخطاب المتصل بشؤون الحياة المختلفة (اجتماع، اقتصاد، ثقافة،....) توجيهاً وتسييراً، فهو خطاب مدني لا ديني.

وهذا الاستعمال يتبناه أئمة الاستشراف واتباعهم، يقول جوزاف بيدرسن PEDERSEN : (إلا أن العلاقة الوثيقة بين الخطبة والصلاة أسبغت على الخطيب الإسلامي مسحة دينية، فلما انتهت فتوح الأجيال الأولى اشتدت غلبة المسحة الدينية، ففي عصر العباسيين ومنذ هارون الرشيد نجد الخليفة قد ترك للقضاة أمر الخطبة في الصلاة)[[10]](#footnote-10)، فالدليل الذي يسوقه هذا المستشرق على غلبة المسحة الدينية على الخطيب الإسلامي هو أن الخلفاء منذ الرشيد تخلوا عن خطبة الصلاة (وهي الخطبة الدينية) واحتفظوا لأنفسهم بالخطاب السياسي.

أما المستشرق جوزف فنسنك wensinck فهو يجعل بعض خطب النبي في الديات[[11]](#footnote-11) - ليست في العبادات- نموذجاً لخطب أمراء العرب الأولين في رعاياهم، فيقول: (ويتعذر القول بأن لها صلة بالخطبة الدينية)[[12]](#footnote-12). وهذه الرؤية ليست سوى انعكاساً لصراع المسيحية الكنسية مع السياسة، الذي انتهى إلى فصل الدين عن السياسة.

**ج – كل خطاب يهدف إلى تحقيق مقاصد خطاب الوحي:**

إذا كان الوحي المقصود عندنا هو وحي القرآن والسنة فالخطاب الديني هو كل خطاب يهدف إلى تحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية الكلية والجزئية، العامة والخاصة، سواء قيل في مناسبة دينية كالصلاة والحج أو في مناسبة مدنية توجيهاً أو تعليماً، فهذا الخطاب المستلهم من نصوص الوحي – القرآن والسنة – المعرف بهما، الذي يحمل المخاطبين على هديهما ومقاصدهما هو الخطاب الإسلامي الذي وردت به السنة، وجرى عليه عمل المتقدمين، فهذه هي هوية الخطاب الإسلامي التي يحث الغزالي على التزامها بقوله: (القرآن كتاب طواف في الكون، وصاف لآفاقه متغلغل في شؤون الحياة يتناولها بالسرد والحكم، يستحيل أن يفرط في قضية تعني الناس من معاشهم أو معادهم، إن لم يتناول الجزئيات كلها بالفتوى الحاسمة فإن أسلوبه في خلق الضمير الزاكي والفكر الراقي يغني ويكفي ويهدي للتي هي أقوم، والخطابة الإسلامية حقاً هي التي تأخذ من القرآن وتسير معه)[[13]](#footnote-13).

واستعمال مصطلح الخطاب الديني أو الإسلامي بالمعنى الأخير هو المعتمد في بحثنا هذا.

**ثانياً- مقاصد الخطاب التربوي والدعوي:**

يستهدف الخطاب التربوي والدعوي في المخاطبين مستويين:

**الأول- المستوى العقلي:**

حيث يستثير الخطاب تفكير المخاطبين ويستنهض تأملهم، بسوق البراهين وأسلوب المحاجة والمجادلة، واستهداف هذا المستوى يتعين عند إثبات الحقائق وتقرير المسلمات، وكذا عند هدم مدعيات الخصوم، ولهذا المقام شواهد قرآنية لا حصر لها، والقرآن نفسه جاء بعضه كما يقول الشاطبي: (على طريقة البرهان العقلي)[[14]](#footnote-14)، نحو قوله تعالى لإثبات الوحدانية: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[[15]](#footnote-15)، ونحو قوله تعالى إثباتاً لحقيقة البعث ورداً على من استبعد عود الخلق بعد الفناء: أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم[[16]](#footnote-16)، وقول الله تعالى مجيباً للمشركين في دعواهم حول مصدرية القرآن فقال: لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين[[17]](#footnote-17).

يأتي هذا الأسلوب القرآني (تعليماً للأمة كيف يستدلون على المخالفين)[[18]](#footnote-18). وخاصية الخطاب الذي يستهدف هذا المستوى أنه يُساق للمتفِق والمختلف أو كما سماه الشاطبي: (الموالف والمخالف)[[19]](#footnote-19).

ولا يُهتدى لهذا المستوى بأسلوب المحاجة المنطقية فحسب، إذ يمكن أن يُهدى له أيضاً بطرق أخرى كالقصص، (فالقصص القرآني من وسائل الإرشاد والتعليم والاعتبار)[[20]](#footnote-20).

**الثاني – المستوى الوجداني:**

إن تحريك العواطف ودغدغة الوجدان يستهدف خلق "بذر" الدوافع أو إنماء الوازع تجاه مختلف التكاليف والالتزامات الدينية الصرفة أو المدنية، وأكثر التكاليف القرآنية جاءت في هذا السياق.

فمثاله في العبادات قوله تعالى: ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا[[21]](#footnote-21).

ومثاله في القيم الخلقية قوله تعالى: ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن[[22]](#footnote-22).

ومن الأحكام المدنية مثاله قوله تعالى: ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه[[23]](#footnote-23).

والخطاب التربوي الدعوي باستهدافه المستويين يهدف إلى تحقيق جملة مقاصد تتلخص في ثلاث محاور:

1. البيان والتعليم: بالكشف عن أحكام الله للناس وتعليمهم سائر أمر دينهم، ومعالجة ما يستجد في حياتهم على ضوء الشرع ومبادئه.
2. التزكية: بتهذيب القيم السلوكية والاجتماعية، للرقي بالفرد والمجتمع لمصف الإنسان المكرم المؤهل لخلافة الله في الأرض.
3. البلاغ: إيصال رسالة الإسلام ودعوته لمن لم تصله، بالصورة اللائقة الرائقة، التي تقوم بها الحجة

**ثالثاً- أهمية المعرفة القرآنية في علوم التربية والدعوة:**

لا يختلف اثنان في مبلغ ما تمثله المعرفة بالقرآن لفظاً ومعناً من أهمية لرجال التربية والدعوة، غير أن الذي يود هذا البحث أن يلفت له نظر المشتغلين في الحقل التربوي، الذين يُعهد إليهم بتربية البنين والبنات وتنشئة الأجيال على قيم الإسلام ومنهجه، وكذا المشتغلين بحقل الدعوة المرجو منها أن تنقل رسالة الإسلام السمحة إلى عموم البشرية التي أفلست نظمها وفلسفاتها في أن توفر لها هنيء العيش فضلاً عن سعادة الروح. أقول يلفت النظر إلى أمر ذي بال في العلاقة بين القرآن الكريم وعلوم التربية والدعوة.

تتحدث كتب علم أصول الفقه في مباحث الاجتهاد عن شروط المجتهد[[24]](#footnote-24) الذي تتكامل لديه أدوات استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، فتتفق على أن من شروط المجتهد العلم بالقرآن الكريم، ثم تعرض الخلاف بين أهل العلم في القدر الذي يتحقق به الشرط، بين اشتراط الإمام الشافعي حفظ القرآن كله، والاكتفاء عند أكثر الأصوليين بمعرفة آيات الأحكام من القرآن فقط وهي نحو خمسمائة آية.

ولعلها من المفارقة في تقديري أن نجتهد في تحديد القدر من القرآن الذي لا يتحقق الاجتهاد دونه، ولو كان الاجتهاد في فروع فقهية وأحكام جزئية، ثم نقابل ذلك بالغفلة عن أهمية العلم بالقرآن في حق المشتغل بالتربية أو الدعوة، رغم أن بحثهما يتجاوز الأحكام الجزئية إلى القضايا الكبرى والتصورات الكلية، عن موقف الإسلام والقرآن من النفس، ومن الاجتماع، وفي الاقتصاد والسياسة، وموقف الأمة المسلمة من محيطها الدولي.

هناك إشارتان من الإنصاف في هذا السياق التعريف بهما:

**الأولى:** إلحاح الشيخ الغزالي على الدعاة في كتاباته الكثيرة بضرورة تقديم فقه الكتاب أولاً[[25]](#footnote-25)، لأن القرآن الكريم إطار ضابط إذا تفرقت السبل .

**الثانية:** استحسان الدكتور القرضاوي للداعية أن يحفظ القرآن كله ويستظهره متى تيسرت له أسباب ذلك[[26]](#footnote-26)، دون أن يكون ذلك إيجاباً وإلزاماً.

وإن كان جهد الرجلين في حقل الثقافة الإسلامية المعاصرة مشكوراً إلا أن القياس على الفقيه يستوجب أن لا يقل زاد المشتغل بالدعوة من القرآن الكريم عما تتحقق به ملكة الدعوة، فالقرآن ألزم الدعاة بمنهج الدعوة المعبر عنه في قوله تعالى: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة[[27]](#footnote-27)، أما مضمون الدعوة الذي هو "سبيل ربك" فهو الذي فصله القرآن في مواضع كثيرة، نحو قوله تعالى:

وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه[[28]](#footnote-28)،

لا إكراه في الدين[[29]](#footnote-29)،

لا يكلف الله نفساً إلا وسعها[[30]](#footnote-30)،

وما جعل عليكم في الدين من حرج[[31]](#footnote-31)،

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين[[32]](#footnote-32).

إن جهل المشتغلين في الحقل الدعوي بمظان آيات الدعوة من القرآن الكريم وكذا سوء فهمها مفاسد كبرى في الدعوة الإسلامية، تشوه مسارها، وتؤخر عجلتها، وانظر مثلاً أي مستقبل للدعوة الإسلامية مع نموذج من رجالها يظن أن آية السيف[[33]](#footnote-33) نسخت جميع آيات الموعظة والمجادلة بالحسنى، شأنه شأن الواعظ الذي أغلظ القول للمأمون[[34]](#footnote-34)، فقال له المأمون: ارفق يارجل؛ فإن الله بعث من هو خير منك لمن هو شر مني وأمره بالرفق، بعث موسى وهارون إلى فرعون فأوصاهما بقوله: فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى [[35]](#footnote-35).

وعليه يتعين على من انبرى للخطابة التربوية والدعوية إلماماً بآيات الدعوة نصاً واستدلالاً، لأنه حيث ذلك (يستوجب في الدين موضع الإمامة)[[36]](#footnote-36) .

 **رابعاً - قيم الشاهد القرآني في الخطاب التربوي والدعوي**

إن أهمية الشاهد في الخطاب تختلف وتتفاوت باختلاف أغراض الخطاب ، فخطاب التعليم غير خطاب الوعظ ، غير خطاب المحاجة، ولكن إجمالاً إذا أردنا البحث في القيم التي يضيفها الشاهد القرآني على النص الخطابي، فيمكن تصنيفها إلى نوعين:

1- **القيمة الشكلية :**

أهم ما يضفيه الشاهد على النص الخطابي في جانبه الشكلي قيمتان:

الأولى : **إضفاء المشروعية**:

إن حضور الشاهد القرآني في النصوص الخطابية الدينية يشكل سند المشروعية فيها، لأنها السنة في الخطابة التعليمية والتربوية، فإمام الخطباء رسول الله لم يكن في حاجة لأن يقدم لأصحابه أدلة وحججاً حتى يصدقوه، بعد أن آمنوا به واتبعوه، ومع ذلك كان هديه في الخطبة أن يسوق الشواهد من القرآن، وربما اكتفى بسورة من القرآن للخطبة، وهكذا عمل صحابته والتابعون.

أخرج مسلم[[37]](#footnote-37) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً[[38]](#footnote-38) وقال: ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم[[39]](#footnote-39).

وفي الصحيح أيضاً عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: ما أخذتُ ق والقرآن المجيد إلا عن لسان رسول الله يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس[[40]](#footnote-40).

هذا الذي تقدم شأن الخطاب التعليمي والتربوي والدعوي بشكل عام، ويتأكد الأمر في بعض الخطابات الخاصة كالجمعة، فبعد اتفاق الفقهاء على مشروعية القراءة في خطبة الجمعة اختلفوا في وجوبها، فذهب الشافعية والحنابلة إلى أن القراءة شرط لصحة الخطبة، وذهب المالكية إلى أن القراءة سنة[[41]](#footnote-41). وعلى الرأيين فالشاهد القرآني أثمر مشروعية النص الخطابي.

هذا ما حدا بالشيخ محمد الغزالي أن ينفي صفة الإسلامية عن الخطابة البعيدة عن القرآن لفظاً ومعنى في قوله: (لا تسمى خطابة إسلامية هذه الكلمات الميتة التي يسمعها الناس في بعض المساجد ثم يخرجون وهم لا يدرون ماذا قال خطيبهم؛ لأنه لم يصل أحداً منهم بروح القرآن، ولا أنعش قلباً بمعانيه، ولا علق بصراً بأغراضه)[[42]](#footnote-42).

**الثانية : الجمالية** :

قد يكون الخطيب موفقا في اختيار مفردات الخطبة ، وفي حسن سبكها، بارعا في توظيف ألوان البديع والبيان، غير أن ذلك لا يمنع كون خطبته« شوهاء»[[43]](#footnote-43) فلا يكتمل حسن النص الخَطابي وجماله إلا بما يحويه من شواهد متنوعة، تتفاوت في جماليتها، ولا شك أن النص القرآني هو أكملها وأجملها، يتدفق جماله فيما حوله، شأن التاج يرصع بالجواهر أو ثوب الحرير يطرز بالذهب.

وقد ظلت الخطابة صناعة عربية يتسابق فيها الأدباء والبلغاء، حتى جاء القرآن الكريم بإعجازه نظماً ومعنى (فسحر العرب منذ اللحظة الأولى، سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للإسلام، ومن جعل على بصره غشاوة)[[44]](#footnote-44)، فأدرك الفصحاء استغناءه عما سواه وشدة فقرهم له.

(قال عمران بن حطان : خطبتُ عند زياد خطبة ظننتُ أني لم أقْصُر فيها عن غاية، ولم أَدَعْ لطاعة عِلة، فمررت ببعض المجالس، فسمعت شيخاً يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن)[[45]](#footnote-45). وهكذا صارت الصناعة اللغوية باهتة على ألسنة الشعراء والخطباء إلا أن تقتبس من سحر القرآن.

يروي ابن هشام في سيرته قصة قدوم وفد بني تميم الذين نزلت فيهم سورة الحجرات على النبي ، و فيها: (لما دخل وفد بني تميم المسجد نادوا رسول الله من وراء حجراته ؛ أن اخرج إلينا يامحمد. فآذى ذلك رسول الله من صياحهم ، فخرج إليهم ، فقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: قد أذنت لخطيبكم، فقام عُطار بن الحاجب فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن، وهو أهله الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظاماً ...ـ يذكر فيها مجد قومه ويفتخرـ ثم جلس .

 فقال رسول الله لثابت بن قيس بن الشّماس: قم فأجب الرجل في خطبته، فقام فقال: الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً و اصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسباً وأصدقه حديثاً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه، وأتمنه على خلقه ...ـ ثم ذكر فضل المهاجرين والأنصار .

 ثم أذن الرسول لشاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد ثم دعا حسان بن ثابت فأجاب، فلما فرغ حسان من قوله قال الأقرع بن حابس: وأبي، إن هذا الرجل لمؤتى له، **لخطيبه أخطب من خطيبنا** ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا.

فلما فرغ القوم أسلموا. وجوزهم رسول الله فأحسن جوائزهم)[[46]](#footnote-46).

وهكذا حين تأثر خطيب الرسول وشاعره ببديع النظم القرآني أقر لهم الخصوم بأنهم الأخطب والأشعر وإن لم يدركوا سر ذلك. فلا يخالط القرآن كلاماً إلا بان أثره عليه، وأمكن جميع النقاد أن يلحظوا بصمة القرآن وروحه في كتابات الرافعي والعقاد وأشعار شوقي وغيرهم، و في هذا المعنى ( تساءل الدكتور زكي مبارك في بعض مقالاته عن السر في بلاغة أسلوب مكرم عبيد وركاكة مقالات سلامة موسى، فوضح له أن السر يكمن في حفظ مكرم عبيد لآيات من قرآن الكريم كان لها أثر في ارتفاع مستواه البلاغي)[[47]](#footnote-47).

فلا مناص لكل خطيب ولوع بجميل القول راغب في إشباع حاجة المستمع "بالتي هي أحسن" إلا الاستكثار من آيات الذكر، وهذا ما تقرره الدكتورة عائشة بنت الشاطئ في قولها: (إن القرآن الكريم هو مناط الوحدة الذوقية والوجدانية لمختلف الشعوب التي اتخذت العربية لساناً لها، ومهما تعددت لهجاتها المحلية وتختلف أمزجتها وتتباين أساليبها الخاصة في الفن القولي يبق القرآن الكريم في نقاء أصالته، كتابها القيم الذي تلتقي عنده هذه الشعوب)[[48]](#footnote-48).

2- **القيمة الموضوعية:**

وتتعلق بالبنية الموضوعية للنص الخطابي وهي التي لها الأثر المباشر في الإقناع والتأثير. وتتجلى في أربع قيم:

**الأولى : التذكير والتحفيز:** يجد الخطيب الواعظ في معرض بحثه عن معالجة أدواء النفوس وأمراض المجتمع نفسه باحثاً عن الوصفات الساحرة والناجعة فيأخذ القرآن بيده: فذكر بالقرآن من يخاف وعيد[[49]](#footnote-49).

حين بلغ خبر وفاة الرسول ، أبا بكر أقبل حتى دخل على رسول الله وهو مسجى فكشف عن وجهه ثم أقبل عليه فقبله ثم قال: بأبي أنت وأمي أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً ، ثم خرج إلى الناس فقال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين[[50]](#footnote-50) فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ)[[51]](#footnote-51). فهدأت النفوس وآبت العقول إلى رشدها ألا بذكر الله تطمئن القلوب[[52]](#footnote-52).

إن أثر القرآن كله وبعضه في نفوس سامعيه يتجاوز أهل الإيمان، وقصص الذين رقت قلوبهم وأزيلت غشاوة أبصارهم بسماع الآية والآيتين كثيرة، ولن نسترسل في عرضها مادام القرآن نفسه يشهد على أثره في بعض أهل الكتاب، في قوله تعالى: وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا من الشاهدين[[53]](#footnote-53).

**الثانية:** **ترسيخ التصور الإسلامي:**

وذلك بربط الأفكار والمناهج والتصورات بمصادرها ( مصادر المعرفة الإسلامية). من خلال بعدين:

**البعد الأول**: استشعار الخطيب أن عمله عبادة، مصداقاً لقوله تعالى: قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له[[54]](#footnote-54)، وأصدق العمل ما كان على السنة، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وصواباً، وصواب العمل موافقته للسنة، وقد كانت سنة النبي في الخطب يقرأ آيات ويُذكر كما مر في حديث مسلم عن أم هشام بنت حارثة .

**البعد الثاني**: إن في إرفاق كل حكم وقضية يبحثها الخطيب بشاهدها القرآني، في العبادات، في الأخلاق والسلوك، في الفكر والثقافة والاجتماع، في الاقتصاد والسياسة، في عالمي الغيب أو الشهادة، إشعار للناس وتعليمهم حقيقة أن يكون القرآن دستور الحياة، وأنه لا حياة إسلامية بمعزل عن القرآن. وأحوج الناس إلى إدراك هذا المتعلمون، ومن ثم تزداد مسؤولية أهل التربية والدعوة في ترسيخ هذا التصور، فهذا الإمام ابن عبد السلام الهواري المالكي يتسائل عن جدوى الاستدلال بالكتاب والسنة في الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة كحكم البيع مثلاً، ثم يجيب: ( فحكمه من الإباحة معلوم من الدين بالضرورة، فالاستدلال المذكور على ذلك في الكتب والمجالس إنما هو على طريق التبرك بذكر الآيات والأحاديث مع تمرين الطلبة على الاستدلال)[[55]](#footnote-55) .

**الثالثة: إقناع المخاطبين:**

قسم ديل كارنيجي عقول الناس إلى أربعة مستويات[[56]](#footnote-56) :

**الأول**: يعارض أصحابه كل اقتراح مهما كان ذلك الاقتراح، فعقولهم مقفلة من قبيل من قال عنهم القرآن: ختم الله على قلوبهم[[57]](#footnote-57) ، ولو جئتهم بكل آية ما تبعوا قبلتك[[58]](#footnote-58) .

**الثاني**: يصغي أصحابه لكل اقتراح يُعرض عليهم مهما كان، فعقولهم مفتوحة، ولكنهم لا يتابعونك إلا ببرهان كاف.

**الثالث**: يثق أصحابه بما يُعرض عليهم وهم مستعدون لمتابعتك عند أول برهان تبديه، فعقولهم طيعة.

**الرابع**: يتابعك أصحابه من غير مناقشة أو تردد وبغير حاجة لبرهان فعقولهم مؤمنة.

ثم يقول: ( أما النمط الثاني وهو العقل المفتوح، والثالث وهو العقل الطيع، فكل ما تحتاجه معهما ؛ قوة الحجة والقدرة على الإقناع )[[59]](#footnote-59) .و هذا أثر الشواهد.

إن ثقة الجماهير بالدعاة لا تعفي رجال الدعوة من ملازمة ومرافقة الشواهد القرآنية في مختلف الخطابات الإسلامية، أياً كانت الفئات المخاطبة، فإن من شأن المؤمن أن يكون وقافاً عند حدود الله يجيب عن خطاب الله تعالى في قرآنه بالقول: "سمعنا وأطعنا"، وهذا الانقياد ليس انقياد عمى، ولكنه انقياد بصيرة ألزمها القرآن الحجة، فليس في تاريخ الثقافة الإنسانية كتاب ينشئ العقل المؤمن إنشاء كما وقع في القرآن[[60]](#footnote-60).

هذا وتذكر كتب التاريخ أن الخوارج وقد كانوا قوماً خصمين[[61]](#footnote-61)، يجادلون عن مذهبهم ويلتقطون الحجج من خصومهم، كان لهم علم بالقرآن، وكان زعماؤهم معنيين بدراسة الكتاب، لما يوفره لهم من قوة حجة في مواجهة خصومهم، وإن كانوا في جدلهم بالقرآن يتمسكون بظواهره، وحين جادلهم ابن عباس رضي الله عنهما بالقرآن رجع كثر منهم.

ولا تتوقف مطالبة الداعية بمجرد استدعاء الشاهد، بل يتعين عليه انتقاؤه وحسن الاستدلال به، (فإنه إذا أحسن الاستدلال بالنص القرآني، ووضعه في موضعه، أزاح كل شبهة، وقطع كل تعلة، وأخرس كل معارض، فلا دليل بعد القرآن ومن أصدق من الله حديثاً[[62]](#footnote-62))[[63]](#footnote-63). وليؤكد الدكتور القرضاوي هذه القيمة للشاهد القرآني يستحضر قصة الرجل الذي أُدخِل على المأمون وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون أن يكون مأموراً من قبل الخليفة فقال له المأمون: لم تأمر وتنهى وقد جعل الله ذلك إلينا، ونحن الذين قال الله تعالى فيهم: الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر[[64]](#footnote-64). فصدقه الرجل قائلاً: ياأمير المؤمنين أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمكن غير أنا أولياؤك وأعوانك فيه، قال الله تعالى : والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[[65]](#footnote-65). فأعجب المأمون بكلامه وسر به، وقال: مثلك يجوز أن يأمر بالمعروف فامض على ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا[[66]](#footnote-66).

**الرابعة: تقريب الموضوع من دائرة اهتمام المخاطبين:** إن تفاعل المستمع مع أي موضوع واستجابته لأي مؤثر يتناسب طردا مع موقع الموضوع من دائرة اهتمامه، وهذا الأمر أدركته مؤسسات الدعاية فوظفته في الدعاية الترويجية والإشهار التجاري، حيث تعمد الدعاية إلى ربط المنتوج المراد ترويجه بأمر يحوز اهتمام الجمهور.

وإذا سلمنا بالنجاعة التسويقية للدعاية التجارية، فإن الشاهد القرآني المتنوع المنتقى بعناية في الخطاب التربوي والدعوي، الذي يتحرك بالمستمع بين إخبارات القرآن وغيوبه، وبين أحكامه وعلومه، فيثير في النفوس فضولها، يلامس لكل طائفة اهتمامها، ويُشبع احتياجها، فتصل هداية القرآن للأمم من مداخل شتى، ولو من باب هواياتها. فتكون أكثر استجابة لرسالتنا الخطابية ومن ثم لرسالتنا الحضارية.

**الخاتمة:**

إن القرآن الكريم دستور الأمة وعلى طريق عودتها إليه واستمساكها به مسؤوليات جسام، تتوزعها همم مختلفة، يصطف حملة القرآن ودعاته في طليعة من يُدعون لإحياء القرآن في حياة الناس علماً وعملاً، على شاكلة من اسماهم السباعي "جمعية أصدقاء القرآن"[[67]](#footnote-67).

إن الخطاب الإسلامي تربوياً كان لأهل الإيمان أو دعوياً لغير أهل الإيمان لا يليق به أن يصير صورة لخطاب القُصاص، فأداؤه لدوره الرسالي رهين بمقدار تشبعه شكلاً وموضوعاً بالخطاب القرآني. وهذا ما سعى البحث لبيانه وفي خاتمته نؤكد على:

1. ضرورة المحافظة على أصالة الخطاب الإسلامي ومراعاته لمقاصد الشريعة.
2. إن الشاهد القرآني يمثل ركن المشروعية في الخطاب الإسلامي عامة والدعوي منه خاصة.
3. يتعين على المشتغلين بالخطابة الإسلامية المباشرة، أو عبر الوسائل الإعلامية المختلفة الحرص على تحقيق المعرفة القرآنية لفظاً ومعنى ما ينمي لديهم الملكة الدعوية.
4. إتاحة فرصة كافية للقرآن ومعارفه في برامج التكوين لدى مؤسسات التكوين العلمي في العلوم الإسلامية ومعاهد تكوين الأئمة والدعاة.
5. أهمية إعداد معجم مفهرس لآيات القرآن الكريم على حسب الموضوعات الدعوية.

ومع كل ما برز في البحث للشاهد القرآني من أهمية في الخطاب تجدر الإشارة قبل الختام أن ذلك يضل محدوداً ما لم يقم لشاهد القرآن شاهد في نفوس أهله، فإنها لصرخة صادقة تلك التي أطلقها المصلح والمؤسس الثاني لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين البشير الإبراهيمي: يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن.

والحمد لله رب العالمين.

**مصادر البحث ومراجعه**

- القرآن الكريم.

أصول الفقه، محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي، القاهرة، 1417/ 1997.

1. تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة– دار الفكر العربي.د. ب

تفسير ابن كثير، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني.

التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، الجزء الأول: ص15 – دار المعارف، القاهرة، ط5، 1977.

1. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ، دار الشروق، ط14، 1993.
2. ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي – مكتبة وهبة، القاهرة، ط10، 1416/ 1996.
3. دائرة المعارف الإسلامية، طبعة مركز الشارقة للإبداع الفكري.
4. الرسالة، الشافعي، ت: أحمد محمد شاكر– د. ب.
5. السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، محمد الغزالي – دار الشروق، القاهرة، ط13، 1425/ 2005.
6. السيرة النبوية، ابن هشام – دار صادر، بيروت، ط1، 1424هـ/ 2003م.
7. صحيح مسلم.

صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني- دار الفكر/ لبنان، 1421هـ/2001م.

1. كيف تكسب الثروة والنجاح والقيادة، ديل كارنيجي ، دار المعرفة.
2. فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن، د.أحمد سالم ملحم
3. كيف تكون خطبتك مؤثرة لمحمد بن عبد الله الحصيري (مقال) – عن البيان والتبيين على موقع: صيد الفوائد saaid.net .
4. لقاء الجماهير، د. أكرم رضا ، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

مجالس التذكير، ابن باديس - مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط1، 1417/ 1996.

المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي – دار السلام للنشر والتوزيع/ الجزائر.

1. المدخل ، ابن الحاج – دار الفكر، د. ب.
2. مع الله، محمد الغزالي- دار القلم، دمشق، ط4، 1421هـ/2000م.

مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي- دار الغرب الإسلامي، ط5، 1993.

1. الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ت: عبد الله دراز – دار الكتب العلمية، بيروت

مواهب الجليل، الحطاب – دار الفكر، ط2، 1398هـ/1978م.

1. هكذا علمتني الحياة، مصطفى السباعي– دار الوراق، بيروت، 1420/ 1999.
1. - المدخل ، ابن الحاج: 2/ 13 – دار الفكر، د. ب. [↑](#footnote-ref-1)
2. - المصدر نفسه: 2/ 14. [↑](#footnote-ref-2)
3. - سورة الرحمن، الآية 1. [↑](#footnote-ref-3)
4. - صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: 3/276 - دار الفكر/ لبنان، 1421هـ/2001م. [↑](#footnote-ref-4)
5. - سورة البلد، الآية 8 و9. [↑](#footnote-ref-5)
6. - المرجع نفسه: 3/ 535. [↑](#footnote-ref-6)
7. - سورة ص، الآية 20. [↑](#footnote-ref-7)
8. - تفسير ابن كثير: 4/30، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني. [↑](#footnote-ref-8)
9. - مجالس التذكير، ابن باديس: ص151- مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط1، 1417/ 1996. [↑](#footnote-ref-9)
10. - دائرة المعارف الإسلامية، مادة: خطيب: 15/4705، طبعة مركز الشارقة للإبداع الفكري. [↑](#footnote-ref-10)
11. - يريد ما أخرجه أبو داوود في كتاب الديات باب العامل يصاب على يديه خطأ، عن عائشة أن النبي بعث أبا جهم بن حذيفة مصدَّقاً فلاجه رجل في صدقته فضربه أبو جهم فشجه فأتوا النبي فقالوا: القود يارسول الله. فقال النبي : لكم كذا وكذا. فلم يرضوا. فقال: لكم كذا وكذا. فلم يرضوا. فقال: لكم كذا وكذا. فرضوا. فقال النبي : إني خاطب العشية على الناس ومخبرهم برضاكم، فقالوا: نعم. فخطب رسول الله : إن هؤلاء الليثيين أتزني يريدون القود، فعرضت عليهم كذا وكذا فرضوا، أرضيتم؟ قالوا: لا. فهم المهاجرون بهم فأمرهم رسول الله أن يكفوا، ثم دعاهم فزادهم، فقال: أرضيتم؟ فقالوا: نعم. فقال: إني خاطب على الناس ومخبرهم برضاكم. قالوا: نعم، فخطب النبي فقال: أرضيتم؟ قالوا: نعم. [↑](#footnote-ref-11)
12. - دائرة المعارف الإسلامية ، مادة: الخطبة: 15/ 4693- 4694. [↑](#footnote-ref-12)
13. - مع الله، محمد الغزالي: ص296- 297. - دار القلم، دمشق، ط4، 1421هـ/2000م. [↑](#footnote-ref-13)
14. - الموافقات، الشاطبي: 3/ 38. [↑](#footnote-ref-14)
15. - سورة الأنبياء، الآية 22. [↑](#footnote-ref-15)
16. - سورة يس، الآية 8. [↑](#footnote-ref-16)
17. - سورة النحل، الآية 103. [↑](#footnote-ref-17)
18. - الموافقات: 3/ 38. [↑](#footnote-ref-18)
19. - المصدر نفسه. [↑](#footnote-ref-19)
20. - مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي: ص89. ينظر أيضاً المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي: ص100 – دار السلام للنشر والتوزيع/ الجزائر. [↑](#footnote-ref-20)
21. - سورة الحج، الآية 77. [↑](#footnote-ref-21)
22. - سورة الحجرات، الآية [↑](#footnote-ref-22)
23. - سورة البقرة، الآية 282. [↑](#footnote-ref-23)
24. - انظر: أصول الفقه، محمد أبو زهرة: ص332 - دار الفكر العربي، القاهرة، 1417/ 1997. [↑](#footnote-ref-24)
25. - انظر كتابه: السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص125 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-25)
26. - ثقافة الداعية: ص80. [↑](#footnote-ref-26)
27. - سورة النحل، الآية 125. [↑](#footnote-ref-27)
28. - سورة الأنعام، 153. [↑](#footnote-ref-28)
29. - سورة البقرة، الآية 256. [↑](#footnote-ref-29)
30. - سورة البقرة، الآية 286. [↑](#footnote-ref-30)
31. - سورة الحج، الآية 78. [↑](#footnote-ref-31)
32. - سورة الممتحنة، الآية 8. [↑](#footnote-ref-32)
33. - قوله تعالى: فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد سورة التوبة، الآية 5. [↑](#footnote-ref-33)
34. - ثقافة الداعية، القرضاوي: 25. [↑](#footnote-ref-34)
35. - سورة طه، الآية 44. [↑](#footnote-ref-35)
36. - الرسالة، الشافعي، ت: أحمد محمد شاكر: ص19 – د. ب. [↑](#footnote-ref-36)
37. - صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم الحديث 1015. [↑](#footnote-ref-37)
38. - سورة المؤمنون، الآية 51. [↑](#footnote-ref-38)
39. - سورة البقرة، الآية 172. [↑](#footnote-ref-39)
40. - صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم الحديث 873. [↑](#footnote-ref-40)
41. - انظر: فيض الرحمن في الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن، د.أحمد سالم ملحم: ص241 وما بعدها. والأحناف لا يشترطون القراءة وإنما يجزئ الذكر. [↑](#footnote-ref-41)
42. - مع الله، محمد الغزالي: ص 296. [↑](#footnote-ref-42)
43. - الخطبة الشوهاء: التي لا قرآن فيها. [↑](#footnote-ref-43)
44. - التصوير الفني في القرآن، سيد قطب: ص11، دار الشروق، ط14، 1993. [↑](#footnote-ref-44)
45. - مقال: كيف تكون خطبتك مؤثرة لمحمد بن عبد الله الحصيري– عن البيان والتبيين على موقع: صيد الفوائد saaid.net [↑](#footnote-ref-45)
46. - السيرة النبوية، ابن هشام : 4/ 130 و ما بعدها – دار صادر، بيروت، ط1، 1424هـ/ 2003م.. [↑](#footnote-ref-46)
47. - لقاء الجماهير، د. أكرم رضا: ص60، دار التوزيع والنشر الإسلامية. [↑](#footnote-ref-47)
48. - التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، الجزء الأول: ص15 – دار المعارف، القاهرة، ط5، 1977. [↑](#footnote-ref-48)
49. - سورة ق، الآية 45. [↑](#footnote-ref-49)
50. - سورة آل عمران، الآية 144. [↑](#footnote-ref-50)
51. - السيرة النبوية، مصدر سابق: 4/199 – بتصرف- [↑](#footnote-ref-51)
52. - سورة الرعد، الآية 28. [↑](#footnote-ref-52)
53. - سورة المائدة، الآية 83. [↑](#footnote-ref-53)
54. - سورة الإنعام، الآية 162. [↑](#footnote-ref-54)
55. - مواهب الجليل، الحطاب: 6/ 11. [↑](#footnote-ref-55)
56. - انظر: كيف تكسب الثروة والنجاح والقيادة، ديل كارنيجي: ص94، دار المعرفة. [↑](#footnote-ref-56)
57. - سورة البقرة، الآية 7. [↑](#footnote-ref-57)
58. - سورة البقرة، الآية 145. [↑](#footnote-ref-58)
59. - المرجع نفسه: ص95. [↑](#footnote-ref-59)
60. - انظر: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، محمد الغزالي 129 – دار الشروق، القاهرة، ط13، 1425/ 2005. [↑](#footnote-ref-60)
61. - انظر: تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة: ص 161- 168 – دار الفكر العربي. [↑](#footnote-ref-61)
62. - سورة النساء، الآية 87. [↑](#footnote-ref-62)
63. - ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي: ص25 – مكتبة وهبة، القاهرة، ط10، 1416/ 1996. [↑](#footnote-ref-63)
64. - سورة الحج، الآية 41. [↑](#footnote-ref-64)
65. - سورة التوبة، الآية 71. [↑](#footnote-ref-65)
66. - المرجع نفسه: ص 25، 26. [↑](#footnote-ref-66)
67. - هكذا علمتني الحياة، مصطفى السباعي: ص270 – دار الوراق، بيروت، 1420/ 1999. [↑](#footnote-ref-67)